﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنْ ادِّعاءِ المُنْكِرِينَ الكاذِبِ إلى فِعْلِهِمُ الصّادِقِ

وَجْهُ اتِّصالِ هذِهِ الآيَةِ بِما قَبلَها مِنْ وَجْهَينِ[1]:

أَحَدُهما: أنَّ اللّه سُبحانهُ لمّا ذَكرَ في الآيَةِ السّابقَةِ أنّهُ لَوْ أَنْزلَ العَذابَ عَلى الإنْسانِ في الدُّنيا لقُضيَ عَلَيهِ؛ بَيَّنَ هُنا ما يَدلُّ عَلى غايةِ ضَعْفِهِ ونِهايَةِ عَجْزِهِ؛ لِيَكونَ ذلكَ مُؤَكِّدًا لِما ذَكرهُ قَبْلُ.

والآخَرُ: أنَّ اسْتِعجالَهُمُ العَذابَ - المذْكورَ في الآيَةِ السّابقَةِ - ليسَ عَلى وَجهِ الحَقيقَةِ، وأنَّهم كاذِبونَ في الطَّلَبِ والاسْتِعجالِ، وآيَةُ ذلكَ تَضَرُّعهُم ودُعاؤهُم اللّه تَعالى عِنْدَما يَنزلُ بِهم أَدْنى شَيْءٍ ممّا يَكْرَهونَهُ مِنْ ضرٍّ أوْ نَحوِهِ ممّا ذَكَرَه اللّه في هذِهِ الآيَةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: فِعلٌ ماضٍ، والجذرُ اللُّغويّ مِنهُ: الميم والسّينُ، وتَدورُ اشْتِقاقاتُهُ عَلى جَسّكَ الشّيءَ بِيَدِكَ عَلى سَبيلِ المباشَرَةِ، ومِنْهُ: المَسُّ؛ وهوَ أَنْ تَمسكَ الشّيءَ بِيَدكَ، والمسُّ يَكونُ مَعهُ إِدْراكٌ بالحاسّةِ كاليَدِ ونَحوِها، والأَذى والشّرُّ الّذي يَنالهُ الإنْسانُ يُسمّى مَسًّا، وفي المسِّ مَعْنى المُخالَطةِ، ويَرِدُ المسُّ بِمَعنى إيقاعِ العَذابِ والسّوءِ والشّرِّ وغيرِها[2]، وقَريبٌ مِنْهُ اللَّفْظُ الواردُ في الآيَةِ، فَهو بِمَعنى إصابَةِ الإنْسانِ الضُّرُّ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/220.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مس).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/36.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: اسمٌ ثُلاثيٌّ، والجذْرُ اللُّغويّ مِنْهُ: الضّادُ والرّاءُ، وهذِهِ المادَّةُ تَدورُ تَصْريفاتُها على ضِدِّ النّفْعِ، ويَرِدُ بِمَعْنى النُّقْصانِ الدّاخِلِ عَلى الشّيْءِ، تَقولُ: دَخَلَ عَليهِ ضَرَرٌ في مالِهِ، أيْ: نَقْصٌ، ويُحْمَلُ عَليهِ كُلّ ما قارَبَهُ مِنَ المَعاني، ويَكونُ بِمَعْنى سوءِ الحالِ في النَّفْسِ كَقِلّةِ العِلْمِ أو في البَدَنِ أوْ حالَةً ظاهِرَةً كَقِلّةِ المالِ والجاهِ، ومِنْهُ إلْحاقُ الأذى والمَكْروهِ بِالمُقابِلِ، وهو يَعُمُّ المادّيَّ والمَعْنَويَّ، وأكْثَرُ الوارِدِ في القُرآنِ الكَريمِ بِمَعْنى الضّيقِ وما يَتَفرَّعُ عَنْهُ[1]، ومَعْنى الضّرِّ في الآيَةِ الكَريمَةِ: الشِّدَّةُ أوِ المَرَضُ أوْ نَحْوهما[2].

3) ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: الجَنْبُ اسْمٌ ثُلاثيٌّ، وجذْرُهُ اللُّغويّ: الجيمُ والنّون والباءُ، وهو دالٌّ على النّاحيَةِ، وجَنبُ الإنْسانِ ناحيَتُهُ، وهوَ أيضًا مُعظمُ الشَّيْءِ وأكْثرُهُ، وقالَ الرّاغبُ: إنَّ الأصلَ فيهِ الجارِحَةُ، ثمَّ يُسْتَعارُ مِنَ النّاحيَةِ، وجَنبُ الإنسانِ شِقُّهُ الّذي يُكَمِّلُ بَدَنَهُ[3]، وقوله: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في الآيَةِ، أيْ: وهوَ مُضْطَجِعٌ مُسْتَلْقٍ على جَنبِهِ[4]، وقدْ يكونُ كِنايةً عنِ الأحْوالِ كُلِّها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيَةُ الكَريمَةُ تُخْبِرُ أنَّ الإنْسانَ قَليلُ الصَّبرِ عِندَ نُزولِ البَلاءِ، قَليلُ الشُّكرِ عِندَ حُصولِ النَّعماءِ والرّخاءِ، فإذا أصابَهُ الضّرُّ فَذو دُعاءٍ عَريضٍ في جَميعِ حالاتِهِ[5] إلى أنْ يَروحَ التَّخلُّصَ ممّا حَلَّ بِهِ مِنَ البلاءِ؛ فَتَحملهُ الضَّرورةُ على الالْتِجاءِ إلى اللّهِ، فإذا كشفَ عَنْهُ؛ أعْرضَ عَنِ الشُّكرِ وعادَ إلى ما كانَ عَليهِ مِنْ قَبلُ كَأن لم يَكنْ

الضُّرُّ الَّذي يَقودُ الإنْسانَ لِلدُّعاءِ والالْتِجاءِ خَيْرٌ مِنَ العافِيَةِ الَّتي تورِثُ الإسْرافَ والبَلاءَ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضر).

(2) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 170.

(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنب).

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/247.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/431.

بهِ بَلاءٌ قطّ، كَذلكَ زُيّنَ لِلمُسرفينَ المُتجاوزينَ سوءُ أَعمالهم مِنَ الإعْراضِ عَنِ الذِّكرِ ومُتابَعةِ الشَّهواتِ وعِصيانِ ربِّ السّماوات.

والإخبارُ بهذهِ الآيَةِ فيهِ لَومٌ على سوءِ خُلقِ بَعْضِ النّاسِ، وإيحاءٌ إلى الانْتِهاءِ عنْ مِثلِ هذهِ الأمورِ، معَ التَّسْليمِ إلى اللهِ سُبحانَهُ، والتَّضرُّعِ إليهِ في الأحْوالِ جَميعًا في المكْرهِ والمنْشَطِ؛ لأنَّ الخيرَ والشّرَّ مِنهُ لا مِن غَيرهِ تَعالى في مَلَكوتهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِذَا﴾:

الاعْتِبارُ بِذَميمِ أَحْوالِ المشْركينَ تَفْظيعًا لَهُم وتَحْذيرًا مِنْهُم

افْتُتِحتِ الآيَةُ الكَريمَةُ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بالواوِ العاطِفَةِ؛ إذْ إنّها عَطَفتْ هذهِ الآيَةَ عَلى ما سَبَقَها مِنْ قولهِ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ رَوْمًا إلى الاعْتِبارِ بأحْوالِ المشْركينَ المذْمومَةِ، فَإنّ حالَهُمُ الفَظيعَةَ يَقْتَضي الحَذَرَ مِنَ الوقوعِ في مِثلِ مَواقِعِهم، وَمَئِنّةٌ ذلكَ أنّهُ خَتَمَ الآيَةَ بِجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فَبَيْنَ الآيتَينِ وَشائِجُ وعَلائِقُ لا تَخْفى، فالعَطْفُ في مَوْقِعِهِ المُناسِبِ[2].

مَعْنى ﴿وَإِذَا﴾ ودلالَةُ اسْتِعْمالِها:

(إذا) لِمُطْلَقِ الظَّرْفيَّةِ، فَهيَ تُفيدُ دَوامَ تِلْكَ الحالِ مِن الالْتِجاءِ عِنْدَ الابْتِلاءِ

تُسْتَعْمَلُ (إذا) لِما يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمانِ في غالِبِ اسْتِعْمالِها في لِسانِ العَرَبِ[3]، إلّا أنَّها في قولهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دالّةٌ عَلى مُجرّدِ الظّرْفيّةِ، ولَيْستْ خاصَّةً بما يُسْتَقْبل؛ فقدْ حَكى اللهُ سُبحانهُ حالَ المشْركينَ ودُعاءَهم عِندَ الاضْطِرارِ، وجاءَ بالفعلِ الماضي ﴿كَانُوا۟﴾ الدّالِّ عَلى مُضيِّ أَعْمالِهم، ثمَّ أَوْرَدَ جَوابَها وما عطفَ عَلَيهِ بالماضي، فهذا هوَ حالُهُم وهوَ أَلْيَقُ وأَدْخلُ في تَسْجيلِهِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/60 - 61.

عَلَيهِم ممّا لَوْ فَرَضَهُ اللّه عَلَيهم في حالِ الاسْتِقبالِ، فلَعَلَّ فيهِم مَنْ يَتّعِظُ ويَتوبُ عَنْ سوءِ عَمَلِهِ وعَمى بَصيرَتِهِ[1].

والتَّعْبيرُ بـ(إذا) يَحْتَملُ الدّوامَ والاسْتِمرارَ في الفِعْلِ؛ فإنَّ تَضَرُّعَهم إلَيهِ تَعالى مُسْتَمرٌّ عِندَ وقوعِ الضّرِّ عَلَيهم، وهذهِ هيَ حالُ الإنْسانِ عَلى وَجْهِ الدَّوامِ والاسْتِمرارِ[2].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿مَسَّ﴾:

المَسُّ أَدْنى دَرَجاتِ الإصابَةِ، واسْتِعْمالُهُ دَليلٌ عَلى ضَعْفِ الإنْسانِ وهَوانِهِ عَلى نَفْسِهِ

التَّعْبيرُ بِالمَسِّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دونَ اسْتِعْمالِ فِعْلِ (أصابَ) يَدُلُّ على أنَّ حالَ الإنْسانِ في أَدْنى بَلاءٍ يَمَسُّه هو الالْتِجاءُ إلى اللّه تعالى داعيًا رَفْعَهُ، والمَسُّ هوَ أَدْنى دَرَجاتِ الإصابَةِ، فَكَيْف إذا كانَ الضُّرُّ الواقِعُ مُصيبَةً عَظيمةً؟! وفي ذلكَ دلالَةٌ على ضَعْفِ الإنْسانِ، فَلا يَحْسُنُ بِهِ أنْ يَدعوَ عَلى نَفْسِهِ؛ لأنّهُ لا يُطيقُ مِن العَذابِ أَقَلّهُ.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

التَّعْريفُ بِاللّامِ يُخْتَمِلُ الكافِرَ وجِنْسَ الإنْسانِ

التَّعْريفُ في لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُرادٌ بِهِ الجِنْسُ، والتَّعْريفُ بِاللّامِ يُفيدُ الاسْتِغْراقَ العُرْفِيَّ، أَي: الإنْسانَ الكافِرَ؛ لأَنَّ أكثرَ النّاسِ حينَئِذٍ كافِرونَ، إذْ كانَ المُسْلِمونَ قَبْلَ الهِجْرَةِ لا يُعَدّونَ بِضْعَةً وَسَبْعينَ رَجُلًا مَعَ نِسائِهِم وَأَبْنائِهِمُ الَّذينَ هُم تَبَعٌ لَهُم، وَبِهَذا الاعْتِبارِ يَكونُ المَنْظورِ إلَيْهِم في هَذا الحُكْمِ هُمُ الكافِرينَ، كَما في قوله تَعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: 66][3].

ويَحْتَملُ أنْ يَكونَ تَعْريفُ لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هُنا لِلاسْتِغْراقِ، خِلافًا لِمَنْ نَصَّ عَلى أنّهُ الكافِرُ أَيْنَما وردَ في كتابِ اللّه تعالى، فأيُّ لَفظٍ حُلّيَ باللّام؛ فإنَّ حُكْمَهُ الاستِغْراقُ والجِنْسيّةُ إنْ لم يُذكَرْ أمرٌ سابِقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/206 - 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

يَنْصَرِفُ الذِّهنُ إِلَيهِ؛ صيانَةً لَهُ مِنَ الإِجْمالِ والتَّعْطيلِ، وإِنْ كانَ اسْتِعمالُ لَفْظِ الإِنْسانِ المذْكورِ هُنا ووَصْفُهُ وما يُباشِرُ مِنْ عَملٍ لا يَليقُ بِالإِنْسانِ المسْلِمِ[1].

ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شامِلًا المسْلمَ والكافِرَ، ولا يَخْتَصّ بِأَهْلِ الكُفرِ؛ فإِنَّ كثيرًا مِنَ المُسْلِمينَ تَلْهَجُ أَلْسِنَتُهم بالدُّعاءِ لِتَفْريجِ الكَرْبِ حتّى إِذا ما كَشَفَهُ اللّه عَنهُم غَفلوا عَنِ الدُّعاءِ، وذَهلوا عمّا يَجِبُ مِنْ شُكرِ نِعْمتِهِ بِما رَفَعَهُ عَنهُم مِنَ الضّرِّ وما مَنَعَ مِنَ الشّرِّ[2].

حـالُ الإِنْـسـانِ عُمومًا - الكافِرِ والمُسْلِـمِ - هـوَ الإِنابَةُ عِنْدَ مَسِّ الضُّرِّ

وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ جَعَلَ اللّامَ في الإِنْسانِ لِلعَهْدِ، وَجَعَلَ المُرادَ بِهِ أَبا حُذَيْفَةَ بْنَ المُغيرَةِ المَخْزومِيَّ، واسْمُهُ: مُهَشِّمٌ، وَكانَ مُشْرِكًا، وَكانَ أَصابَهُ مَرَضٌ[3]، إِلّا أَنَّ ما تَقدَّم أَقْوى؛ لِعُمومِ اللَّفْظِ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

وقـوعُ الـضُّـرِّ لا يَـخْـتَـلِـفُ عَـنِ الأَفْـرادِ والمَجْموعِ؛ فإِنَّ الـحـالَ سَـواءٌ في الـتَّـضَـرُّعِ والالْتِجاءِ

استُعملَ لفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دونَ النّاسِ أو البَشَرِ أوْ نَحوِه؛ لأنّهُ أرادَ في ذِكْرِ لفظِ الإنسانِ التّذكيرَ بِنعمةِ اللّه تعالى إِذْ خَلَقَهُم ورَزَقَهُم وجَعَلَهُم مِن أَشْرفِ الأَنْواعِ الّتي بَرَأَها على الأَرْضِ[4]، مِصْداقًا لقوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: 70]، وللإشارَةِ إلى أنَّ مَسَّ الضُّرِّ لا يَخْتَلِف عَن مَسِّ إِنسانٍ بِمُفْرَدِه، أوْ مَسّ مَجْموعِ النّاسِ؛ فإِنَّ الحالَ سَواءٌ في التَّضرُّعِ والالْتِجاءِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

قَصْرُ إِيقاعِ الضُّرِّ عَـلى الإِنْـسـانِ مُبالَغَةٌ لإِرادَةِ الـتَّـخْـويـفِ والتَّحْذيرِ

قُصِرَ إِيقاعُ الضّرِّ على الإِنْسانِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بِتَقْديمِ المَفْعولِ على الفاعِلِ، وهوَ قَصْرٌ لإِرادَةِ المبالَغَةِ، فكَأَنَّهُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/221.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

جَعلَ وقوعَ الضّرِّ كائنًا على الإنْسانِ فحَسْب، وغَرَضُهُ: التَّخويفُ والرَّدعُ والتَّحذيرُ والتَّنبيهُ، وإلّا فإنَّ ضرّهُ وعذابَهُ تعالى مُحْتَملُ الوقوعِ على المَخْلوقاتِ جَميعًا.

مَعْنى التَّعْريفِ في: ﴿ٱلضُّرُّ﴾، ودلالةُ الاستعمال:

الإنْسانُ ضَعيفٌ في احْتِمالِ الضُّرِّ العارِضِ فَكَيْفَ بِالشَّرِّ العَريضِ

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى ما تَقَدَّمَ مِنْ لَفْظَةِ الشَّرِّ[1] في قوله: ﴿*وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ فإنَّهُ لَمّا كانَ مسُّ الضّرِّ عَلى جِهةٍ مُعيّنةٍ وهيَ اسْتِعْجالهُم الشّرَّ؛ ناسَبَ أنْ يأتيَ الضّرُّ مُعرّفًا، ولَمّا كانَ تعريفُ الشّرِّ ثَمَّ لِلعَهدِ - وهو الشّرّ المَعْهود لأهْلِ مكّةَ- ؛ تَعيّنَ أنْ يَكونَ هُنا كذلكَ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ لِلجِنْسِ، أيْ: أَصابَ الإنسانَ جِنسُ الضّرِّ، كالمرَضِ والفَقرِ[2] وأيِّ علّةٍ أُخرى مِنَ الشَّدائدِ والمصائبِ الّتي كَتبَها اللّه على الإنْسانِ.

والسِّياقُ يَدلُّ عَلى أنَّ المرادَ بالضُّرِّ عُمومُ الضُّرِّ مِنَ الأمراضِ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ، فإذا كانَ الإنسانُ على مَرَضٍ عارِضٍ غَيْرَ قادرٍ، فَكَيفَ بالشَّرِّ العَريضِ.

واسْتُعْمِلَ لَفظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بدَلاً مِنْ لَفظِ الشّرِّ المذْكورِ قَبْلُ؛ لِكَونِ الضّر المَقْصودِ هُنا هوَ ضرَّ المرَضِ والوَجعِ والعِلَّة[3]، وهوَ مِنَ الأمثِلَةِ اليَسيرَةِ عَلى الشّرِّ، فما الحالُ إذا حاقَ بالإنْسانِ الشّرُّ بِتَمامِهِ؟!

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّةِ في لَفْظِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾:

تَصْويرُ الضُّرِّ وتَشْخيصُهُ أَدْعى في الاعْتِبارِ وأَقْرَبُ إلى الانْكِسارِ

شُبِّهَ الضُّرُّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بِشَخصٍ يَمَسُّ آخَرَ، فَذُكِرَ المشبَّهُ، وَحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ، مَعَ ذِكْرِ لازِمٍ مِن لوازِمِهِ؛

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 139، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/240.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/469.

وهوَ المَسّ، عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ المكنيَّةِ الأصْليَّةِ، وغرَضُ الاسْتِعارَةِ تَشْخيصُ الضُّرِّ وتصْويرُهُ، فإنَّ ذلِك أَدْعى إلى اسْتِحْضارِ المرادِ، والتَّرهيبِ مِنَ المَقْصودِ.

بَلاغَةُ جَوابِ ﴿وَإِذَا﴾:

تَصْويرُ مَشْهَدِ الإنْسانِ في الدُّعاءِ عِنْدَ مَسِّهِ أَدْنى ضرٍّ دَليلٌ عَلى كَذِبِهِ في اسْتِعْجالِ الشَّرِّ

ورَدَ قوله تَعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ جوابًا لِقوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾؛ لِلإيماءِ إلى الضَّعفِ الإنْسانيِّ الكامِنِ فيهِ؛ فَما إنْ يَمسّ الإنسانَ الضُّرُّ حتّى تَنْكَشِفَ حَقائقُ ذلِكَ الضّعْفِ، فيَلْتجِئُ إلى خالِقِهِ طالِبًا منهُ المعونَةَ والأَيْدَ مُتَضَرّعًا في كَشْفِ ما بِهِ مِن ضرٍّ ومرَضٍ، أيْ: بِمجَرَّد مسِّ الضّرِّ يَصْرخُ الإنْسانُ داعيًا، وهو مَشْهدٌ يَدلُّ على الحالَةِ العَجيبَةِ الّتي يَمرُّ بِها الإنْسانُ في مَرَضِهِ وعَجْزِهِ.

فائِدَةُ الإسْنادِ في: ﴿دَعَانَا﴾:

بَيانُ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبادِهِ ورَأْفَتِهِ بِحالِهِم، فَفي تِلْكَ الحالِ المَدْعوُّ هوَ اللهُ دونَ غَيْرِهِ

أُسنِدَ فِعلُ الدُّعاءِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في قوله: ﴿دَعَانَا﴾ ولَم يُسنِدْهُ إلى صَريحِ الاسْمِ الأحْسَن (اللهِ)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (دَعا اللهَ) أوْ نَحْوهُ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ أَرادَ بَيانَ رَحْمَتِهِ بِعِبادِهِ بِقَولِهِ: ﴿دَعَانَا﴾، عَلى سَبيلِ التَّكلُّمِ لا الغَيْبَةِ، أيْ: دَعانا نَحنُ دونَ غَيْرِنا، وهو تَعبيرٌ دالٌّ على رَأْفَةِ اللهِ بِعِبادِهِ وإرادَتِهِ الخَيرَ لَهُم، والدّاعي يَدْعو اللهَ تعالى، لَكنَّ العِبْرَةَ بِالنَّظْمِ الَّذي دَلَّ على أَمرين: أَحَدهما: الإخْبار بِدُعاءِ الإنْسانِ رَبَّهُ. والآخَر: بَيان رَحْمَةِ اللهِ ورَأْفَتِهِ بِعِبادِهِ الفُقَراءِ.

بَلاغَةُ التَّدَلّي في أَحْوالِ الدُّعاءِ:

التَّرْتيبُ عَلى طَريقِ التَّدَلّي مِنَ الأَكْثَرِ ضَرَرًا إلى الأَخَفِّ

رَتَّبَ النَّظْمُ القُرآنيُّ أَحْوالَ الدُّعاءِ بادِئًا بالمُضْطَجِعِ عَلى جَنْبِهِ فالقاعِدِ، ثُمّ خَتَمَ بالقائمِ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، و"إنَّما بَدَأَ بالمُضْطَجِعِ؛ لأنَّهُ بالضّرِّ أَشَدُّ في غالِبِ الأَمرِ،

فهوَ يَدْعو أَكْثرَ، واجْتِهادُهُ أَشَدُّ، ثُمَّ القاعِدِ ثُمَّ القائمِ"[1]، فجاءَ التّرْتيبُ عَلى طريقِ التَّدَلّي مِن الأَكْثَرِ إلى الأقلِّ ضَرَرًا.

ويَجوزُ في هذا التّرْتيبِ أنْ يكونَ وَفْقًا لحالِ الدّاعي عندَ دُعائِه، فَبَدَأَ بِأَنْدرِ الأَحْوالِ مُلابَسةً لِلدُّعاءِ وهيَ حالَةُ الجَنْبِ، فهيَ تَتَطلَّبُ الرّاحَةَ والسُّكونَ والهُدوءَ، ثمَّ زادَ عَليها الدُّعاءَ عِندَ القُعودِ وعندَ الجُلوسِ تَتْميمًا لِلأَحْوالِ جَميعِها وإطْنابًا في الكَلامِ[2].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ في تَرْتيبِ أَحْوالِ الدّاعينَ في الصِّحَّةِ والمَرَضِ:

الآيَتانِ جاءَتا عَلى سَبيلِ التَّدَلّي وإنْ كانَتا مُتَعاكِسَتَي الأَحْوالِ

جاءَ تَرْتيبُ حالِ الذّاكرينَ اللّه في قوله تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، فكانَ على عَكْسِ التَّرْتيبِ في قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾، فبدأَ في آلِ عمران بالقائمِ فالقاعِدِ فالمُضْطَجِعِ عَلى جَنْبِهِ؛ لأنَّ الذِّكرَ - ومنهُ الصّلاةُ - في غالِبِ أحوالِهِ يَكونُ على وَجْهِ القيامِ، ثمَّ القُعودِ، فالاضْطِجاعِ عَلى جَنْبِهِ، أمّا في سورَةِ يونُس فقدَ عَكَسَ التّرْتيبَ؛ لأنّهُ في سياقِ الحَديثِ عَن وقوعِ الضُّرِّ، فالمريضُ في أشَدِّ أحوالِهِ يَكونُ مضْطَجعًا، فأَوْسَطها القُعود، فأَخَفّها القيام، وبِناءً عَلى شِدَّةِ الضُّرِّ والمَرَضِ تَكونُ كَثْرةُ الدُّعاءِ.

واسْتُعْمِلَ حَرْفُ الواوِ في آيةِ آلِ عمران؛ لِبَيانِ أحوالِ الذّاكرينَ اللّه تعالى، فَهُم يَذْكرونَهُ في هذهِ الأَحْوالِ مُجْتَمعَةً ومُتَفرِّقَةً، فَبَدأَ بِالأَغْلَبِ، فالأقلِّ، على سَبيلِ التَّدَلّي في ذِكْرِ غالِبِ أَحْوالِ الذّاكِرينَ، واسْتَعْمل حَرفَ (أو) في آيةِ يونُسَ؛ لأنَّ الضّرَّ قائمٌ على هذهِ الأقْسامِ كما تُفيدُهُ (أو) وهيَ لِلتّقسيمِ[3]، فالمريضُ يَشْتَدُّ دُعاؤُهُ وهو في حالِ الاضْطِجاعِ، فيَكونُ الدُّعاءُ بِرَفْعِ الضُّرِّ في أَعْلى دَرجاتِ الالْتِجاءِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/317، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 175.

والضَّراعَةِ، فهوَ كذلك على سَبيلِ التَّدَلّي، فالآيَتانِ جاءَتا على سَبيلِ التَّدَلّي، وإنْ كانَتا مُخْتَلِفَتَي التَّرْتيبِ، وذلك باعْتِبارِ التَّعاكُسِ في الأَحْوالِ، فآيَة آلِ عِمران في الصِّحَّةِ، وآيَةُ يونُسَ في المَرَضِ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾:

لاسْتِعْمالِ اللّام دونَ (على) مَزيدُ اخْتِصاصٍ، وهوَ أنَّ الدّاعيَ يَدْعو لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ

اللّامُ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ بِمَعنى (على)، أيْ: دَعانا عَلى جَنْبِهِ، كقوله تعالَى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: 109] أي: على الأذْقانِ، وقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ [الصافات: 103] أيْ: عَلى الجَبينِ، ووَرَدَ بِلَفْظِ (على) نَصًّا في قوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النّساء: 103]، وهذا المَعْنى ناشِئٌ مِن مَعْنى الاخْتِصاصِ، وهوَ أَعَمّ مَعاني اللّامِ في كَلامِ العَرَبِ[1]، ووَجْهُ مُناسَبَتِهِ لِهذِهِ الهَيْئَةِ أنَّ الجَنْبَ لَصيقٌ بالدُّعاءِ عِندَ الضّرِّ ومُخْتَصٌّ بِهِ[2]، واللّامُ تَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ عَلى بابِها عَلى تَقديرِ: ملْقيًا لِجَنْبِهِ[3]، وفي ذلِكَ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الضّرِّ واسْتِحْكامِهِ؛ فلا يَسْتَطيعُ جلوسًا، كما يوصَفُ العاجِزُ بِقولِهم: فلانٌ لِما بِهِ[4]، فاخْتيارُ اللّامِ في هذا السِّياقِ لَهُ وَجْهُهُ البَيانيُّ وهوَ أنَّ اللّامَ دالَّةٌ على أنَّ الدّاعيَ إنَّما يَدْعو لِأَجْلِ الضُّرِّ الواقِعِ عَليهِ، فهوَ يَدْعو لِأَجْلِ ضرِّ جَنْبِهِ، أوْ لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ، فلِهذا حَسُنَ اسْتِعْمالُ اللّامِ دونَ (على) في هذا السِّياقِ.

سِرُّ التَّغايُرِ في التَّعبيرِ جَرًّا ونَصْبًا: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا﴾:

اسْتُعْمِلَتِ اللّامُ لِبَيانِ شِدَّةِ المَرَضِ الَّذي يُصيبُ الإنْسانَ

في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ غويرَ في التَّعْبيرِ بَيْنَ اسْتِعْمالِ الجرِّ باللّامِ فَجَعلهُ لِلجَنْبِ، وبَيْنَ النَّصبِ فجَعَلَهُ لِلقاعِدِ والقائمِ، ولَم يعْكسْ مَثَلًا بِأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنِيُّ: (دَعانا مُضْطجعًا أو لقعودِهِ أو لقيامِهِ)، وسِرُّ ذلكَ: إظْهارُ التَّمَكُّنِ مِن حالِ الرّاحَةِ

(1) الرّمانيّ، منازل الحروف: 50 - 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/20.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

والاسْترخاءِ، فيَذكرُ جانبَ جَسَدِهِ، فهو أَقْوى وأَظْهرُ في التَّمَكّنِ[1] فالقَريبُ مِنَ الأَرْضِ أَمكَنُ مِنَ القاعِدِ والقائمِ، وهي دالَّةٌ على تَمَكُّنِ الضُّرِّ والمَرَض.

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿أَوْ﴾:

العَطْفُ يَقْتَضي تَقْسيمَ أَحْوالِ المَرْضى أَوْ أَصْنافِ مَضارِّهِم

عَطَفَ الحَرفُ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ حالَي القُعودِ والقيامِ عَلى حالِ الاضْطِجاعِ[2]، ومِن مَعاني (أو) الدّائرَةِ في لِسانِ العَرَبِ التَّقْسيمُ[3]، وهيَ هُنا كذلكَ؛ فإنَّ فائدَتَها تَقْسيمُ الدُّعاءِ لِلأَحوالِ جميعًا[4]، فمُقْتَضى هذا العَطْفِ تَقْسيمُ أَحْوالِ المَرْضى ما بَيْنَ شَديدِ المَرَضِ الّذي يُمثِّلُهُ الاضْطِجاعُ، ومُتَوسّطِهِ الّذي يُمثِّلُهُ القُعودُ، وأَخَفّهِ الّذي يُمَثِّلُهُ القيامُ، أَوْ لِأَصْنافِ الضَّررِ الواقِعِ على الجَنْبِ أَوْ قُعودًا أَوْ قيامًا.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

امتِنانُ الله على عِبادِهِ في سُرْعَةِ رَفْعِ الضُّرِّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ دالَّةٌ على سُرعةِ إجابَةِ المُضْطَرِّ الدّاعي، وقُربِ زمانِ الكَشْفِ والنّجاةِ[5]؛ لِدلالَتِها على التَّعْقيبِ مِن غَيرِ مُهلَةٍ في حروفِ المَعاني[6]، وفي ذلكَ إِظْهارٌ لِلامتِنانِ مِنهُ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُتَضرِّعينَ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التّصْريحيَّةِ: ﴿كَشَفْنَا﴾:

تَشْبيهُ الضُّرِّ بِغِطاءٍ يَكْتَمُ أَنْفاسَ الإِنْسانِ

حَقيقَةُ الكَشْفِ أَنْ تُظْهِرَ شَيئًا عَليهِ حاجِبٌ أَوْ سِتارٌ، ثُمّ أَصْبَحَ يُطلَقُ عَلى كلِّ إِزالَةٍ[7]، والتَّعْبيرُ بِهِ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ عَلى طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّةِ التَّبَعِيَّةِ، فقد شُبِّهَ الرَّفْعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/332.
(3) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/455.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.
(6) ابن جنّي، اللّمع في العربيّة، ص: 91.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

بالكَشْفِ، وحُذِفَ المشبَّهُ، كأنَّ الضّرَّ غِطاءٌ على الإنْسانِ كانَ ساترًا لَهُ ومُغَطِّيًا[1].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ: ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

تَشْبيهُ الضُّرِّ بِحِجابٍ صَفيقٍ يَلْفَعُ الإنْسانَ فيَعوقُهُ عَنِ التَّحَرُّكِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ اسْتِعارةٌ مَكْنِيَّةٌ؛ فالضّرُّ يُرْفَعُ ولا يُكْشفُ، وفي هذا التَّعْبيرِ تَشْبيهُ الضّرِّ بِغِطاءٍ كَثيفٍ يُغَطّي الإنْسانَ فيَمنَعُهُ مِنَ الحَرَكةِ، فحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ وذُكِرَ لازِمٌ مِنْ لوازمِهِ وهوَ الكَشْفُ.

والاسْتعارَةُ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾ والاسْتعارَةُ في ﴿كَشَفْنَا﴾ مُتَكامِلَتانِ، تقوّي إحداهما الأخرى في بَيانِ اسْتِحْكامِ الضُّرِّ بِصاحِبِهِ، إلّا أنَّهُما لا تجْريانِ دفْعَةً واحِدَةً؛ لانْشِغالِ إحْداهُما بِكونِها قَرينَةً لِلأُخْرى، ولَكنْ يجْريانِ باعْتِبارَيْنِ مُختلِفَيْنِ.

بَلاغَةُ إيجازِ القَصْرِ في: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ سُرْعَةِ اسْتِجابَةِ اللهِ تَعالى بِسُرْعَةِ النِّسيانِ دَليلُ الغَفْلَةِ وأَمارَةُ الحَسْرَةِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ فيهِ إيجازٌ بِالقَصْرِ؛ والأَصْلُ: فلَمّا دَعانا رَحمناهُ واسْتَجَبنا لَهُ وكَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ، لَكنّهُ طَوى تِلكَ المعانيَ وذَكرَ النَّتيجَةَ والمآلَ؛ وهيَ كَشْف الضّرِّ؛ تَنْبيهًا عَلى سُرعةِ الاسْتِجابةِ بِكَشفِهِ؛ لِبَيانِ مَوْقفِ هذا الإنْسانِ في مُقابَلَةِ نِعمَةِ اللهِ في كَشْفِ الضُّرِّ، وهوَ المُرور كَأَنَّهُ لَم يَدْعُ اللهَ بِشيءٍ، فقابَلَ سُرْعةَ الاسْتِجابَةِ بِسُرْعةِ النِّسيانِ والتَّغافُلِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿عَنْهُ﴾:

بَيانُ عِنايَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ لِيَشْكُروهُ عَلى نِعَمِهِ وعَطائِهِ

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُ﴾ عَلى المَفْعولِ ﴿ضُرَّهُۥ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾؛ لِلأَهَمِّيَّةِ والعِنايَةِ، ففيهِ بَيانُ رِعايَةِ اللهِ لِعِبادِهِ؛ لِيَشْكروهُ على ما أَوْلاهُم بِهِ مِن نِعْمَةِ العافيَةِ بَعْدَ البَلاءِ، والصِّحَّةِ بَعْدَ المَرَضِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

فائِدَةُ التَّعْريفِ بِالإضافَةِ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَكونَ ذِكْرُ الضُّرِّ مُعَرَّفًا باللّامِ لا بالإضافَةِ إلى هاءِ الضَّميرِ؛ وذلكَ لِتَقدُّمِ ذِكْرِ لَفْظِ الضُّرِّ، فيَكونُ ذِكْرُ الضُّرِّ لِلعَهْدِ الذِّكريِّ، لَكنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ جاءَ مخالفًا لِمُقْتضى الظاهِرِ لِيوافقَ مُقْتَضى الحالِ، فالضُّرُّ الواقِعُ عَلى الإنْسانِ أَصْبحَ لَصيقًا بِهِ، مَعْروفًا لَديْهِ، مُصاحِبًا لِحالِ صاحِبِهِ اضْطِجاعًا أوْ قُعودًا أوْ قيامًا، فهوَ ضرٌّ خاصٌّ بِصاحِبِهِ؛ لِذلكَ آثَرَ النَّظمُ المَجيءَ بِالإضافَةِ إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ العائِدِ عَلى الإنْسانِ؛ لِبَيانِ أنَّ الضُّرَّ المَكْشوفَ هوَ ضرُّهُ اللَّصيقُ بِهِ على الدَّوامِ، وفي ذلكَ مَزيدُ امتِنانٍ عَلى الإنْسانِ.

إذا تَطاوَلَ زَمانُ الْتِصاقِ الضُّرِّ بِالإنْسانِ أَصْبَحَ مَعْروفًا بِهِ

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾ جَوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾:

اخْتيرَ التَّعْبيرُ بـ﴿مَرَّ﴾ جَوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أي: اسْتَمرَّ عَلى ما كانَ عَلَيهِ مِنْ طَريقٍ، ولم يَأبَهْ لِفِعْلِنا ونَسيَ ما كانَ فيهِ مِنَ الضّرِّ[1]، كأنّهُ عاجَلَ كَشْفَنا بِالمُرورِ والمُروقِ في آنٍ، وفيهِ تَصْويرٌ لِسُرعةِ جُحودِ الإنْسانِ ومَرارَةِ النُّكْرانِ.

الإنْسانُ الجاحِدُ سَريعُ الكُفْرانِ شَديدُ النُّكْرانِ

والمرورُ هُنا تعبيرٌ عنِ المُضيِّ عَلى عَهْدِهِ الأوّلِ، ونِسْيانِ ما كانَ فيهِ مِنْ حالِ الجهْدِ والبَلاءِ، وفيهِ إعراضٌ عنْ موقِفِ الابْتِهالِ والدُّعاءِ والضَّراعَةِ كأنّهُ لَم يَكنْ مِنهُ ذلكَ قَطُّ، وهوَ غايَةُ الجُحودِ والكُفْرانِ[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾:

التّعْبيرُ بالمرورِ في قوله تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ مَجازِيٌّ، بِمَعْنى اسْتِبْدالِ حالٍ بِغَيْرِها، فشُبِّهَ الاسْتِبْدالُ بِالانْتِقالِ مِنْ مَكانٍ إلى آخَرَ؛ لأنَّ الانْتِقالَ اسْتِبْدالٌ، أي: انْتَقَلَ إلى حالٍ كَحالِ مَنْ لَم يَسْبِقْ لَهُ دُعاؤُنا، أيْ: نَسِيَ حالَ الاضْطِرارِ واحْتِياجِهِ إلَيْنا، فَصارَ

جُحودُ الإنْسانِ نِسْيانٌ ماحِقٌ وتَغافُلٌ مارِقٌ

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/281، ومكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

كَأَنَّهُ لَم يَقَعْ في ذَلِكَ الاحْتِياجِ[1]، وهذا يَدُلُّ على شَديدِ النُّكرانِ والجُحودِ في مقابَلَةِ نِعَمِ اللّه تَعالى.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في الآيَةِ:

تَصْويرُ حالِ الإنْسانِ الّذي يَدْعو اللّه عِنْدَ البَلاءِ ويَنْساهُ عِنْدَ الرَّخاءِ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ تَشْبيهٌ، إذْ قد جاءَ مُصدّرًا بـ(كأنَّ) المفيدَةِ التَّشْبيهَ، واسْمُها ضَميرُ الشّأنِ مَحْذوفٌ، وقدْ شُبِّهَ حالُ مَن يَدعو اللّه عندَ كَرْبِهِ وبَلائِهِ بِحالِ مَن لَم يَكنْ مِنْهُ دُعاءٌ قَطّ، "أيْ: كَأنْ لَم يَكنْ لَهُ بِنا مَعْرِفَةٌ أصْلًا، فَضلًا عنْ أنْ يَعْتَرِفَ بِأنّا نَحنُ كَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ"[2]، وفيهِ تَصْويرٌ لِما عَليهِ المَرْءُ الّذي يدْعو اللّه تعالى ويَبْتَهِلُ إليهِ عِندَ حُلولِ البَلاءِ في الأَحْوالِ كلِّها، فإذا انْفَرَجَتْ حالُهُ؛ انْحازَ وانْدَفعَ في خِضَمِّ الحياةِ ناسيًا ما كانَ بِهِ عندَ الرَّخاءِ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

شَبَّهَ الضُّرَّ بالعَدوِّ المُفاجِئِ الَّذي يُسْتَنصَرُ إلى دَفْعِهِ

جاءَ التَّعْبيرُ بِحَرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ دونَ اللامِ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ على طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّبعيَّةِ، فقد شُبّهَ الضّرُّ بالعَدوِّ المُفاجِئِ الَّذي يَدْعو إلَى مَنْ فاجَأَهُ ناصِرًا إلَى دَفْعِهِ[4]، أيْ: أنَّ الإنْسانَ دَعا اللّه تَعالى إلى رَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ، كمَن يَدْعو مَن يَنْصُرهُ إلى دَفعِ عَدوٍّ عَنهُ باغَتَهُ عَلى حينِ غرَّةٍ.

بَلاغَةُ المجازِ بالحَذْفِ في الآيَةِ:

ذِكْرُ الضّرِّ دونَ ذِكْرِ كَشْفِهِ؛ لِبَيانِ شَديدِ وَقْعِهِ عَلى الإنْسانِ

التَّعبيرُ في قوله تَعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ مَجازٌ بالحذْفِ؛ فإنَّ الدّعاءَ ليسَ لأجْلِ الضّرِّ نَفْسِهِ إنّما هوَ لِكَشْفِ الضّرِّ، والتَّقْديرُ: كأنَّهُ لَم يَدْعُنا طالِبًا إلى كشْفِ الضّرِّ الّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/347.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

مَسّهُ[1]، فآثَر ذِكْرَ الضُّرِّ دونَ كَشْفِهِ، لِبَيانِ المَقْصودِ بالدُّعاءِ، وشَديدِ وقْعِهِ عَلى الإنْسانِ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في ﴿ضُرٍّ﴾:

الإنْكارُ والتَّقْليلُ سُلوكانِ يَتَعاوَرانِ النّاسَ في مَوْقِفِهِم مِنَ الضُّرِّ بَعْدَ كَشْفِهِ

غَرَضُ تَنْكيرِ الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ الإيماءُ إلى الإنْكارِ، أيْ: إنْكار أنْ يَكونَ اللّه سبحانهُ قدْ كَشَفَ عَنِ الإنْسانِ ضرَّهُ، وفي ذلكَ بَيانُ سوءِ سُلوكِ الإنْسانِ وجُحودِهِ وعَظيمِ نُكْرانِهِ، كَما أنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ التَّقليلَ، أيْ: تَقْليلَ الضُّرِّ في نَظَرِ الإنسانِ بَعْدَ أنْ كُشِفَ عنهُ، والإنْكارُ والتَّقْليلُ غَرَضانِ يتعاوَرانِ بَيْنَ الجاحِدينَ، فَمِنَ النّاسِ مَن يُنكرُ كَشْفَ الضُّرِّ جُملةً، ومِنْهُم مَن يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ رَفْعِهِ وكَشْفِهِ.

فائدَةُ وَصْفِ الضُّرِّ بِالجُملَةِ الفِعْليَّةِ:

تَذْكيرُ الإنْسانِ بما نَسِيَهُ مِنْ مَسيسِ الضُّرِّ والآلامِ

آثَرَ النَّظْمُ التَّعْبيرَ بالجُملةِ الفِعْليّةِ بِصيغَةِ الماضي ﴿مَّسَّهُۥ﴾ وَصْفًا لِقَولِه: ﴿ضُرٍّ﴾، وذلكَ لإثْباتِ وقوعِ الضُّرِّ وأنَّهُ قدْ مسَّ الإنْسانَ، وتَحقَّقَ ضَرَرُهُ، ولَولا أنْ كَشَفَ اللّه تَعالى الضُّرَّ عَنْهُ؛ لَبَقيَ في مَسيسِهِ متوجِّعًا مُتألِّمًا إلى أنْ يَموتَ، وفائدَةُ ذلكَ تَذْكيرُ الإنْسانِ بِما مَسَّهُ مِنَ الضُّرِّ، بَعْدَ أنْ سُجِّلَ عَلَيْهِ جُحودُهُ ونُكْرانُهُ.

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ:

الكَشْفُ عَنْ سَبَبِ جُحودِ الإنْسانِ بَعْدَ كَشْفِ الضّرِّ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ إذْ إنَّ جُحودَ العَبْدِ ونُكْرانَهُ جميلَ صُنْعِ اللّه تعالى مَعَهُ بِرَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ من أعجَبِ العجَبِ، كَأنَّهُ قيلَ: لمَ يَفْعل ذلكَ؟ فقيلَ: لِما يُزَيّن لَهُ مِنَ الأمورِ الّتي يَقَعُ بِها الاسْتِدْراجُ لِإسْرافِه، وهذا دَأْبُنا أبَدًا[2]، فتَزْيينُ الأعْمالِ المُنْكَرة من قِبَلِ الشَّيْطانِ هيَ سَبَبُ الهُبوطِ في ذلكَ الجُحودِ، والغَرَقِ في مُسْتَنْقَعِ النُّكْرانِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126، والعكبريّ، التّبيان: 2/668.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

بَلاغَةُ التَّذييلِ في الآيَةِ:

تَـهْـديـدُ أَهْـلِ الـضَّـلالِ ووَعـيـدُهُـم، وتَـنْـبـيـهُ أَهْـلِ الـعُـقـولِ مِـنْ تَـزْيـينِ أَعْـمـالِ السّوءِ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تَذْييلٌ يَعُمُّ ما تَقَدَّمَ وغَيْرَهُ، أَيْ: هَكَذا التَّزْيينُ الشَّيْطانيُّ زَيَّنَ لَهُم ما كانوا يَعْمَلونَ مِنْ أَعْمالِهِم في ماضي أَزْمانِهِم في الدُّعاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ ضَلالاتِهِم[1]، وهذه الجملةُ خبرٌ مُتَضمّن التّهديدَ والوعيدَ لأهلِ الكفرِ والضّلالِ، الّذينَ لا يَنْتهونَ عَن ضَلالِهِم وكُفرِهِم، ولا يَسْتَمعونَ لِداعي الخَيرِ، ولا يَسْتَجيبونَ لِدَليلِ الرَّشادِ، ولا يَعْتَبرونَ بِما أَصابَ غَيْرَهم، وما سُلِبوهُ مِنْ نِعمٍ؛ فاسْتَحقّوا ما يَقَعُ عَليهم مِن سَخَطٍ وعَذابٍ[2].

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

تَشْبيهُ تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ بِعُمومِ تَزْيينِ أَعْمالِ الضّالّينَ

شُبِّهَ تَزْيينُ إِعْراضِهم عَن دُعاءِ اللّه تَعالى وَحْدَهُ في حالِ الرَّخاءِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بالتَّزيينِ المَعْروفِ لَدى المخاطَبينَ، وهوَ الّذي يوقِعُ صاحِبَهُ في الضَّلالَةِ، ويحرِفُهُ عَنِ الجادَّةِ، فكَأَنَّ الآيَةَ تَقولُ: مِثْلَ ذلكَ التَّزْيينِ الّذي تَعْرِفونَهُ مِنْ إيقاعِ النّاسِ في الضّلالِ المُبينِ، زُيِّنَ لِهذا الإنْسانِ بَعْدَ أَنْ كُشِفَ ضُرُّهُ الّذي مَسَّهُ، فَمَرَّ دونَ شُكْرِ مَن رَفَعَ عَنهُ ضرَّهُ، وفائدَةُ هذا الأُسْلوبِ اسْتِحْضارُ مَعْهودِ المخاطَبينَ مِنَ العِلمِ؛ لِفَهْمِ مُرادِ اللّه تَعالى مِن سُنَنِه، فإنَّ سُنَّةَ التَّزْيينِ ثابِتَةٌ لا تَبديلَ لَها، فهذهِ الآيَةِ من بابِ إلْحاقِ الفَرْعِ بِأَصْلِه، أَيْ: تَشْبيه تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ، بِتَزْيينِ عُمومِ أَعْمالِ الضَّلالِ.

ويُحْتَملُ أَنْ يَكونَ المَعْنى: مِثْلَما يهْدِرُ الّذي يُنْفِقُ مالَهُ، ويتَجاوزُ فيهِ حُدودَهُ، ما كانوا يَصْنعونَ مِنَ المُجافاةِ عَنِ اللّه ومِنِ اتّباعِ الشَّهواتِ وتَعاطي المَلَذّاتِ، وهوَ صَنيعُ المُسْرِفينَ الكاذِبينَ بِتَضْييعِهِمُ السَّعادَةَ الخالِدَةَ بِالشَّهْوَةِ النّافِقَةِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/969.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ (ذَلِكَ):

تَعْظيمُ المُشارِ إلَيهِ وبَداعَتُهُ

في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أُلْحِقَتِ اللّامُ الدّالَّةُ على البُعْدِ في لِسانِ العَرَبِ[1]، ومَعْناها تَعْظيمُ المشارِ إليهِ، وسِرُّ التَّعْظيمِ هُنا عَجيبُ ما كانَ مِنْ شَأنِهم وبَداعَتُهُ؛ فعَجيبٌ أَنْ يدعوَ الإنسانُ في شِدّتِهِ ثمَّ إنْ كُشِفَ عنه عاد مُتَنَكِّبًا عَنْ صِراطِ مَولاهُ جاحِدًا ما أَنْعَمَ اللّه عليهِ منْ نِعَمِهِ وآلائِهِ!

نُكْتَةُ بِناءِ فِعْلِ التَّزْيينِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَفْعولِ:

العِبْرَةُ بِوقوعِ التَّزْيينِ في تَصَوُّراتِ المُسْرِفينَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الفاعِلِ

في بناءِ فِعلِ التّزيينِ لِلمَفْعولِ في قوله تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ نُكْتَتانِ:

إحْداهُما: أنَّ فِعْلَ التَّزْيينِ بُنِيَ لِلمَفْعولِ لِلعِلْمِ بفاعِلِه، فإنَّ المُسْلِمينَ يَعْلَمونَ يَقينًا أَنَّ خَواطِرَهُمُ الشَّيْطانيَّةَ هيَ الّتي تُزَيِّنُ لَهُم أَعْمالَهُم؛ لأنَّ إسْنادَ فِعْلِ التَّزْيينِ لِلشَّيْطانِ وارِدٌ ومَعْهودٌ في كِتابِهِ العَزيزِ[2] كَقولِه تَعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43].

الآخَرُ: أنْ يَكونَ الإسْنادُ إلى المَفْعولِ لِلتّنْبيهِ عَلى التّزْيينِ والعِبْرَةِ مِنهُ؛ فإنَّ مَعْرِفَةَ المزيِّنِ هُنا غَيرُ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ، وإنَّما المهِمُّ أنْ يَعْتَبِرَ الإنْسانُ ويَتَّعِظَ، وأنْ يَعْلَمَ أنَّ الأفْعالَ القَبيحَةَ بِكَثْرَةِ التَّرْدادِ تُصْبِحُ حَسَنَةً عِندَ أَصْحابِها فَلا يَشْعُرونَ بِقُبْحِها[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

بَيانُ المُبالَغَةِ في جُحودِ الإنْسانِ لِأَقْرَبِ فَضْلٍ عَلَيْهِ، وذلِكَ إسْرافٌ في الجُحودِ والنُّكْرانِ

وُصِفَ الجاحِدونَ بالمسْرفينَ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ الطّاغينَ أوِ الجاحِدينَ أوِ الكافِرينَ أوْ مُقارِباتِها؛ ذلكَ أنَّ الإسْرافَ هوَ الإفْراطُ، وهوَ أمرٌ غَيرُ مَحْمودٍ

(1) المراديّ، توضيح المقاصد: 3/1548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/257.

الْبَتَّةَ، واخْتيارُ لَفظِ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ لِكَونِهِ دالًّا على المبالَغَةِ في الكُفرِ؛ فتَعْريفُ المسْرِفينَ لِلاسْتِغراقِ لِيَشْمَلَ الجَميعَ[1].

وجَعَلَ الرّازيُّ لِغَرَضِ التَّعْبيرِ بـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ دونَ غَيْرِها مِنَ المفْرَداتِ ثَلاثَةَ أَوْجُهٍ[2]:

أَوَّلها: أنَّ الكافِرَ مَوْصوفٌ بِلَفْظِ الإِسْرافِ؛ لِكَوْنِهِ مُفرّطًا في نَفْسِهِ بِجَعلِها عَبدًا لِلوَثنِ، وفي مالِهِ بِتَضْييعِهِ في البَحيرةِ والسّائبةِ ونحوِها.

ثانيها: أنَّ مَنْ كانَتْ عادَتُهُ عِندَ نُزولِ البَلاءِ أنْ يَكونَ مُتَضَرِّعًا داعيًا، ثمَّ يُعرِضُ عنْ ذكرِ اللهِ عندَ زَوالِ البَلاءِ ونُزولِ الآلاءِ وحُلولِ الرَّخاءِ فلا يَشْكرُهُ؛ إنَّما هوَ المُسْرِفُ في شَأْنِ دينِهِ، فكما يكونُ السَّرَفُ في الإنْفاقِ يَكونُ مُسْرِفًا فيما يتْركُ منْ واجِبٍ أوْ يُباشرُ منْ قَبيحٍ.

ثالِثها: أنَّ المسْرِفَ في أصْلِهِ هوَ الّذي يُنفقُ المالَ الكثيرَ لِأَجْلِ العَرَضِ الدُّنْيويِّ الزّائِفِ، ومَعْلومٌ أنَّ لَذّاتِ الدُّنيا رَخيصَةٌ في مُقابِلِ سَعاداتِ الآخِرَةِ الّتي يَكْتَسِبُها بالعَقْلِ والقَلبِ والفَهمِ، فمنْ بَذلَ هذهِ الآلاتِ الشَّريفةَ لأَجْلِ الفَوزِ بالسّعاداتِ الخَسيسَةِ؛ أنْفَقَ كذلك الشّيءَ النَّفيسَ مقابِلَ الحُصولِ على الشّيءِ الخَسيسِ.

وحاصِلُ ذلك: أنَّ التَّعبيرَ بالإسْرافِ فيهِ بَيانُ أنَّ الإنْسانَ لَم يَكنْ جاحِدًا فَحَسبُ، بَلْ كانَ مُسْرِفًا في جُحودِهِ ونُكْرانِهِ وفِسْقِهِ ومَعْصيَتِهِ.

فائدَةُ مَجيءِ نائِبِ الفاعِلِ اسْمًا مَوْصولًا ﴿مَا﴾:

الإشْعارُ بِعِلَّةِ وَصْفِهِمْ بالمُسْرِفينَ وتَحْقيقُ عُنْصُرِ التَّشْويقِ

مَجيءُ نائبِ الفاعِلِ اسْمًا مَوصولًا ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، دونَ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كذلكَ زُيِّن للمسرفين أعمالُهم)؛ لِأمرَيْنِ:

أَحَدهما: الإشْعارُ بِعِلّةِ بِناءِ الخَبرِ على الصّلَةِ، والمعْنى: أنَّ عَمَلَهمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/222.

السَّيِّئَ القَبيحَ علَّةٌ، وسَببٌ لِوَصْفِهم بالمسْرِفين ومِن ثمّ اسْتِحْقاقِهِمُ العَذابَ المُهينَ.

الآخَر: إحْداثُ عُنصرِ التّشْويقِ في التّعريفِ بهؤلاءِ المسْرِفينَ، فهوَ - أي: التَّشْويقُ - يكونُ على مَرْحَلَتين؛ الإبهامِ ثمَّ التَّعيينِ والبَيانِ، فَلَمّا ذُكِرَ الاسْمُ الموْصولُ ﴿مَا﴾ وهوَ ممّا لا يُفهمُ منهُ شيءٌ؛ كان هذا إبْهامًا، ثمَّ عُرِّفَ بجملَةِ الصّلةِ، وهذا هوَ البَيانُ، وفي هذا الأسْلوبِ تَشْويقٌ لِجُملةِ الصّلةِ الدّالّةِ على ما كانَ مِنْهم مِنْ عَملٍ تَجاوَزوا فيهِ الحُدودَ، فَصاروا بِهِ في زُمرةِ المسْرِفينَ الضّالّينَ.

دلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

دَيْدَنُ الجاحِدينَ مُقابَلَةُ كَرَمِ الله ونِعَمِهِ بِالنُّكْرانِ والبُهْتانِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ الفعلُ النّاقصُ ﴿كَانُواْ﴾ للدّلالَةِ على ما اعْتادوا عَلَيهِ مِنَ الأعْمالِ الّتي تَجاوَزوا فيها الحُدودَ، فجَعَلَتْهُم مِنَ المسْرِفينَ، وفيهِ بَيانٌ أنَّ هذا ديْدَنُهم مَع نِعَمِ اللّه تعالى، وهذا ما يُلاقونَ بِهِ كَرَمَهُ سُبحانه.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِمُفْرَدَةِ العَمَلِ فِعْلًا مُضارِعًا:

الاسْتِمْرارُ في المَعاصي والكُفْرِ سَبَبُ البَقاءِ فيها

جاءَ التّعبيرُ بِصيغَةِ المضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجَدُّدِ مَعاصي القَومِ، واسْتِمرارِهم في كُفْرِهم مَع ظُهورِ الفَسادِ ووُضوحِ الضَّرَرِ[1].

غَرَضُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

الحَمْلُ عَلى العُمومِ تَرْهيبٌ نافِعٌ وتَحْذيرٌ مانِعٌ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لِحَمْلِهِ على عُمومِ الأعْمالِ الّتي كانوا يَقْتَرِفونها، وعَدَمِ قَصْرِهِ على عَملٍ واحِدٍ؛ قَصْدًا إلى إحْداثِ التَّرْهيبِ النّافِعِ والتّحْذيرِ الرّادِعِ، لا سيَّما وقدِ اقْتَرَنَ بِهِ (ما) الدّالَّةُ على الإبْهامِ والعُمومِ، فيدْخُلُ فيهِ أصْنافٌ كَثيرَةٌ مِنَ الأعْمالِ الفاسِدَةِ القَبيحَةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَسّ واللّمس:

المسُّ هوَ اتّصالُ الأجْسام بَعْضِها ببَعْضٍ، وقدْ يكونُ مجازًا بِمَعنى الإصابَةِ بالعَذابِ، أوْ مَسِّ الشَّيْطانِ[1]، وبَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّمسِ فارقٌ، وهوَ: "أنَّ المسَّ يكونُ مِنَ الحِجارَةِ، وما بِسَبيلِ ذلكَ، تَقولُ: مَسَّ الحَجَرُ الحَجَرَ، واللَّمسُ لا يَكونُ إلّا لِطَلَبِ مَعْرِفَةِ اللّينِ أوِ الخُشونَةِ، والحَرارَةِ أو البُرودَةِ؛ فهوَ مُسْتَعملٌ في الإنْسانِ"[2] فالمُرادُ مِنَ اللَّمسِ: الطَّلَبُ؛ لِذلكَ يُقالُ: أَلْمِسُهُ فَلا أَجِدُ أثَرَهُ[3]، أمّا المسُّ فهوَ المُباشرَةُ ابْتِداءً، فالتّعْبيرُ بالمسِّ في الآيَةِ الكريمَةِ أَبْلَغُ وأَوْقَعُ وأَلْيَقُ بالمَعْنى المرادِ؛ وهوَ إيقاعُ العَذابِ، فإنّهُ لا يَكونُ على نِيَّةِ الطّلَبِ مِنهُ تَعالى، بَلْ على نِيّةِ الوقوعِ إنْ أَرادَ اللّه سبحانهُ ذلكَ.

المَسُّ اتِّصالُ جِسْمٍ بآخَرَ، واللَّمسُ قد يُطْلَقُ على طَلَبِ الشَّيْءِ وإنْ لَم يوجَدْ

القُعود والجُلوس:

ذهَبَ جَماعَةٌ مِن عُلماءِ العَربيَّة إلى أنَّ القُعودَ والجلوسَ بمعنًى واحِدٍ[4]، ومالَ آخَرونَ إلى التَّفْريقِ بينَهُما؛ فمِن أَشْهَرِ الفروقِ المذْكورَةِ: أنَّ الجلوسَ يكونُ مِن اضْطِجاعٍ، والقُعودَ يكونُ مِن قيامٍ[5]، ولِذا وَرَدَ في حَديثِ أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه أنَّه قال عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «وَكانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقالَ: "أَلا وَقَوْلُ الزّورِ ..."»[6]، ويُقالُ: قامَ فقَعَدَ.

القُعودُ يكون فيما فيه لُبْثٌ وإقامَةٌ، بخلاف الجلوس فيُستعمل لما قلَّ زَمَنُهُ

وهذا التَّفْريقُ عَلى شُهرتِهِ فيهِ نَظَرٌ بَيِّنٌ[7]؛ فإنَّ النَّبيّ ﷺ قالَ: «إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ؛ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ»[8]، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 297.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 468.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جلس).
(5) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللُّغة، ص: 60، والفيّوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قعد).
(6) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5976).
(7) عبد الفتّاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 72 - 73.
(8) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (714).

حَديثِ جِبْريلَ المشْهورِ عَن عُمرَ بنِ الخطّابِ ﷺ أنَّهُ قالَ: «بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللّه ﷺ ذاتَ يَوْم؛ إذْ طَلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ...»[1]؛ فإنَّ الجلوسَ هَهُنا ليسَ عَنِ اضْطِجاعٍ قَطعًا، ووَرَدَ في حديثِ القَبْرِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «يَأْتِيهِ مَلَكانِ فَيُقْعِدانِهِ»[2]، وهذا لَيْسَ عنْ قيامٍ جَزْمًا.

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخْرَى لا حاجَةَ إلى سَرْدِها في وجْهِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الكَلِمَتَيْنِ، أَظْهَرُها: أنَّ القُعودَ يكونُ لِما فيهِ لُبْثٌ وإقامةٌ ما، بِخِلافِ الجُلوسِ؛ فيَقِلُّ زَمَنُهُ بالنِّسْبَةِ لِلْقُعودِ، ومِنْهُ قيلَ: قَواعِدُ البَيتِ، ولا يقالُ: جَوالِسُهُ[3]، وسُمِّيتِ الجنَّةُ: مَقْعَد صِدقٍ، دونَ مَجْلِس صدْقٍ؛ لأنَّ أَهْلَها خالِدونَ فيها[4].

أمّا الْجُلوسُ؛ فتَصْريفاتُهُ دالَّةٌ على عَدَمِ اللُّبْثِ طَويلًا، ومِنْهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 11].

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (8).

(2) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2870).

(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قعد). ومحمد خضر ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 136 - 137.

(4) الشّايع، الفروق اللُّغويّة وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»